

## الباب الثامن

---

«من ذكريات معتقل سياسي»  
مذكرات صليب إبراهيم

---

oboiikan.com

(١)

هذا كتاب ولد عزيزا على صاحبه، وقد أحس مؤلفه بالواجب تجاهه، وأحس بأنه قصر في تأليفه ونشره، فأثر أن ينشره على نفقته وأن يعنى به ما وسعته العناية، ومع أن موضوع الكتاب كان من الموضوعات المطروقة في كتابات كثيرين من كتابنا الذين عانوا مما عانى منه المؤلف؛ فإن الأستاذ صليب إبراهيم نجح في أن يقدم كتابًا ذا مذاق مختلف - وإن لم يكن في حاجة إلى هذا الاختلاف - لكنه بحكم فضجه كان قد أصبح واعيًا للوقائع التي يتناولها ودلالاتها المختلفة، وربما أن وعيه هذا يفوق وعى كثيرين من الكتاب المحترفين الذين تناولوا التجربة ذاتها من قبل.

والواقع أن صاحب هذه المذكرات لم يكتب ما كتب من أجل أن ينال به مجدًا أو ماضيًا أو أن يسجل به بطولة أو كفاحًا مع أن هذا وارد وليس بحاجة إلى نفى، لكن صاحبنا وجد أن من واجبه تجاه ذريته أن يسجل لهم هذه التجربة التي لم يقدر لهم أن يحيوها وهم أطفال، وهو فخور أمام نفسه بهذه التجربة، وفخور أمامهم بأنه كان من المجاهدين بفكرهم، وفخور أمامنا بأنه كان من زمرة هؤلاء الوطنيين الذين قاسوا الأمرين على يد نظام الرئيس عبد الناصر.

نعرف من بدايات هذا الكتاب أن صاحبه انتمى إلى اليسار، وأن هذا الانتماء قاده قبيل الثورة إلى الاعتقال السياسي عقب حريق القاهرة، لكننا لا نعثر في الكتاب كله على ما يدل على تحول صاحبه إلى اليسار ولا على انجذابه إليه، ولا حتى على تشبعه به، وكأنما استيقظ صاحبنا فوجد نفسه يساريًا، أو وجد نفسه مصنفًا على أنه يسارى . . وهكذا نجد أنفسنا نشاهد الفيلم من وسطه من دون أن تعود بنا الكاميرات

إلى ما قبل هذه اللحظة التي بدأت العمل عليها . . . وكأنما هذا الكتاب جزء ثان من كتاب سابق يتناول حياة صاحبه قبل أن تندفع به الأحداث إلى المعتقلات .

(٢)

ومع هذا فقد نجح المؤلف في أن يلخص حياته على هذا النحو الذكي الذي أوحى به عنوان مذكراته ، وهو عنوان متواضع في كل كلمة منه ، حتى وإن أوحى بعض كلماته بغير التواضع ، فالكلمة الأولى (من) تشير بوضوح إلى دقة التواضع وتواضع المعرفة . والكلمة الثانية (ذكريات) تشير إلى الاحتراز الطبيعي من أن تصور الذكريات على أنها مذكرات . والكلمتان الثالثة والرابعة تختزلان تاريخ صاحبهما في صفة لم تدم إلا طيلة مدة الاعتقال ، ومع هذا فإنها ألفت بظلمها على حياته فيما بعد ذلك .

وكما أن الأستاذ صليب إبراهيم لا يحدثنا عن ماضيه في اليسار ولا في الانتماء إليه ، فإنه لا يحدثنا عن السبب الذي دفع باسمه إلى كشوف المعتقلين ، ولا على النشاط الذي جعله مطلوباً مرة واثنين . . . إنما هو معنى فحسب بالحديث عما حدث بعد اللحظة لا عما حدث قبلها .

(٣)

ولا يفتأ الأستاذ صليب إبراهيم يحدثنا في نعومة وتواضع وسلاسة عن معتقداته في ثورة يوليو بداية وعهداً ونهاية ، وهو يجاهر بما لا يجاهر به غيره من إيمانه بسيطرة الفاشية على فكر رجال الثورة ، وهو يقول في هذا المعنى :

«ولم يتنبه الشيوعيون وقتذاك إلى الهوية الفاشية للثورة ، وهي هوية تكره الشيوعيين أكثر مما تكره الاستعمار» .

وهو يدلل على فكرته بما عبر عنه عبد الناصر نفسه في خطبته يوم ٢٣ ديسمبر في بورسعيد ، عندما شن على الشيوعيين - الذين كانوا يدافعون عن بورسعيد قبل ١٩٥٨ عامين أثناء العدوان الثلاثي - أبشع حملة استعان فيها بكل التهم الباطلة والنعوت التي لم يسبق أن صدرت من قائد وطني في مصر ، ثم لحق به الكاتب محمد حسنين هيكل

الذى أعلن في مقاله بالأهرام أنه يتوجب على الشيوعيين أن يخلقوا أفواههم ويضعوا عليها أقفالاً من حديد وإلا . . . (وكانت بعد ذلك هذه ال . . . إلا)، وهو يمضى فيقول :

« . . . وسرعان ما ضرب عبد الناصر ضربته في أول يناير ١٩٥٩ التي فاجأت الشيوعيين، ففي اليوم السابق فقط كان الدكتور عبد العظيم أنيس يتوقع أن يسود العقل في النهاية، وأن الثورة سوف تدرك أنه لا مصلحة لأحد في استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية . ومن هنا عندما بدأت للمحاكمة الكبرى للشيوعيين التي قدمت فيها الثورة ٦٤ معتقلاً إلى المحكمة العسكرية التي عقدت بالإسكندرية في أكتوبر ١٩٥٩، لم يكن لدى الشيوعيين إدراك كامل بحقيقة العداء الذي كان يكتفه عبد الناصر، وكانوا يتصورون أنهم يستطيعون أن يحققوا عليه انتصاراً في ساحة العدل ونسوا أن العدل كان آخر ما يشغل ذهن عبد الناصر، فقد كان كل ما يملأ رأسه هو كرسى الحكم».

«وتم فعلاً وبعدها بأسبوع واحد ما هدده الأستاذ هيكل كل القوى الوطنية وبدلاً من غلق أفواههم فقط، أغلقت عليهم أبواب الزنازين بالمعتقلات والسجون». وبعد ١٤ صفحة يعبر صليب إبراهيم عن المعنى ذاته فيقول : «ما هذا؟ هل هذه هي الدولة الثورية (الأحرارية) الوطنية الاشتراكية الديمقراطية . . . أم أننا كنا نعيش مع محرقة هولوكوست وجستابو مصرى ليم إبادة كل مفكرى هذا البلد وحتى لا يعلو أى صوت على صوتهم . . . صوت نيرون . . . ثم يبررون ذلك، بأن الحاكم لم يكن يعلم . . . ياسلام . . . ألم يعلم بالقتل والإبادة وكما قال الشاعر إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم».

#### (٤)

ومع هذا فإن صليب إبراهيم يتعاطف تعاطفاً غير خفى مع الفلسطينيين الذين زجت بهم الثورة في المعتقلات مشيراً إلى تجربته في مزاملة معين بسيسو، وعبد القادر ياسين، وغيرهم من معتقلي غزة الذين قدر له أن يزامنهم حين امتد النظام الناصرى باعتقالاته إلى الفلسطينيين في غزة حين كانت واقعة تحت الإدارة المصرية :

«وانخرط الرفاق الفلسطينيون معنا في الحياة لهم ما لنا وعليهم ما علينا وكلنا في

المهانة سواسية . وكان للشاعر الفلسطيني الكبير تواجده ليلاً . . عندما تغلق الزنازين  
ويعم الظلام ويتطلق الشاعر من خلف الأبواب ببعض قصائده . . التي أشعلت  
الحماس . وبدأ التنافس بين الشعراء ، يرد عليه محسن الحياط وفؤاد حداد وغيرهم بما  
تجود به قرائح الغير .

«وقد تبين أن معين سيسو اعتقل مع خطيبته، وقبض أيضاً على إخوته الثلاثة،  
فبكت الأم لهول ما أصابها في بنيتها، وقال لها معين بشعره :

لك الجماهير أبناء بلا عدد

فلست وحلك يا أمي بلا ولد

ومن أقواله الماثورة التي قيلت :

أنت إن سكت مت

أنت إن نطقت مت

فقلها، ومت

ورد عليه البلبل فؤاد حداد بقصيدته :

الموت طليق الناب

ينفرك الأحياب

الموت على الأبواب

سادد علينا الدرب

الشرد والزمهير والدوامات توب لي

عديت صحارى وليالى مهلكة تبلى

وسوس في صدري شيطان الراحة قال تب لي

م الغربة بعد الشقا . . أنا قلت يا شيطان

دا الحب أوطان . . وكان الحب مكتوب لي»

(٥)

ويحرص صليب إبراهيم على الإشارة إلى أن معين بسيسو كان يرفض (وهو في المعتقل) أن يقرأ للمعتقلين قصائده التي أشاد فيها بالتجربة الناصرية قبل أن يقع أسيراً للاعتقال السياسي الظالم .

«ولقد حاول الزملاء من تنظيم (حدثو) أن يسمعوا من معين بسيسو بعض قصائده التي كانت تتحدث عن أمجاد عبد الناصر، ولكنه رفض ذلك، وكيف والبصمات على جسده توضع نهاية هذه البطولات!!» .

(٦)

كذلك فإن صليب إبراهيم يبدى رأيه الواضح في إعدام خميس والبقرى في بداية عهد الثورة، وهو يقرن هذا الرأي برأى مماثل في الإهانة التي حرص العهد الجديد على أن يلحقها بعدلى للموم كرمز من رموز الإقطاع أو العائلات الكبيرة .

ويبدو صليب إبراهيم متأثراً كل التأثر بالمصير الذي لقيه فرج الله الحلو، سكرتير الحزب اللبناني، الذي أذيب جسده في الأحماض، وهو يرى أن النظام الناصري لجأ بعد ذلك إلى عملية الإذابة المعنوية والجسدية البطيئة حتى لا تفوح رائحة الجريمة :

«ومع هذا فإن المصادفات القدرية (أعلى حد تعبير صليب إبراهيم : الرياح التي تأتي بما تشتهي السفن) جعلت «دماء شهدي عطية العطرة» تسيطر على يوغسلافيا وتوقف مخطط إبادة اليساريين» .

«ولم يكن البطل شهدي هو أول من اغتيل ضرباً وقتلاً، بل كان قد سبقه الشهيد محمد عثمان والشهيد الدكتور فريد حداد . قتل شهدي عطية في ١٥ يونيو ١٩٦٠، وعندما تناثرت الأنباء ووصلت إلى أسرته بنشر نعي وفاته بجريدة الأهرام في ٢٠ يونيو ١٩٦٠ في نعي عجيب أثار انتباه كل قراء الأهرام (وكيف مر النعي على الرقابة في صفحات الوفيات !!)، يتصدر النعي التالي :

«شهدي عطية الشافعي»

«عطية الشافعي وأسرته ينعون بعد أن واروا عزيزهم فخر الشباب الأستاذ شهدي عطية الشافعي مقره الأخير ويقولون لمن واساهم : لن نشكركم فالشكر لكم في هذا الموقف نكران لوفائكم . وشهدي وذكره ملك لكم وأمانة في ضمائركم . . أما أنت يا عزيزنا الغائب فإننا نرثيك بهذا :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة  
تقوم مقام النصر إن فاته النصر  
تردى ثياب الموت حمرأ في دجى  
لها الليل الأوهى من سندس أخضر  
وما مات حتى مات مضرب سيفه  
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر  
ونفس تعاف العار حتى كأنما  
هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر  
(وهي من قصيدة للشاعر أبي تمام)

«وتناقلت وكالات الأنباء برقيات أسرته ووصلت أخبارها إلى (بريوني) بيوغسلافيا حيث كان عبدالناصر يشهد مع الرئيس تيتو جلسة لمجلس النواب اليوغسلافى وفوجئ بالمجلس يقف حداً على استشهاد شهدي عطية الشافعي، واحتج أحد النواب اليوغسلاف وقال : مصر تتحدث عن الاشتراكية والديمقراطية وهم يقتلون رموز الاشتراكية والديمقراطية !!» .

«ورد عبدالناصر : لم نقتل أحداً . وقدمت له برقيات وكالات الأنباء العالمية، والتي تعلن عن مقتل شهدي عطية من جراء التعذيب على باب أوردى ليمان أبو زعبل في مصر . وكانت مفاجأة قاسية لعبد الناصر على مستوى عالمي، فأخطر القاهرة ووزير الداخلية بوقف التعذيب وإجراء التحقيق في ذلك . ومن هنا توقف التعذيب وكان دم الشهيد ضوء أمل وطمأنينة لكل سجناء الرأي وكان الثمن باهظاً للغاية» .

(٧)

لهذا السبب نرى صليب إبراهيم حريصاً على أن يضمن مذكراته ذلك النص الذي يعتز به وبالبحث عنه وبعثوره عليه، وهو نص قصيدة « الشهيد » للشاعر محمد مهدي الجواهري بكل ما تتضمنه هذه القصيدة من المعاني السامية والقيم الثورية . .

وقد فعل الشيء نفسه حين نقل للقارئ صورة من نعي الأسرة الذى نشر فى الأهرام عقب استشهد شهدى عطية الشافعى متعجباً ومذهولاً، كما ذكرنا، من غفلة الأهرام عن الانتباه إلى ما تضمنه هذا النعى من دلالات ومن أبيات للشاعر العربى العظيم أبى تمام.

### (٨)

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب كله يجد القارئ نفسه فى مواجهة كاتب وطنى قادر على الحكم على الأمور وعلى التمسك بصواب حكمه على الأمور، وعلى دفع ثمن هذا الحكم من نفسه وبدنه وعلاقاته، وهو يبدأ سلسلة أحكامه التى ربما تقترب به من الحرص على أن يكون واحداً من ملاك الحقيقة المطلقة !! منذ الصفحة الأولى للكتاب حين يضع جملتين بتوقيعه، يقول فى الأولى: « ٢٦ يناير ١٩٥٢ حرق الملك فاروق القاهرة ». ويقول فى الثانية: « أول يناير ١٩٥٩ أحرق النظام كل قوى التقدم واليسار » . .

هكذا يقول صليب إبراهيم وكأنه يخجل على عبد الناصر بالمسئولية عما يراه مسئولاً عنه!! وعما أنفق ساعات كتابه فى إثباته .

### (٩)

ومع أن صليب إبراهيم يعادى سلوكيات ثورة ٢٣ يوليو تجاه الشيوعيين، فإن صليب إبراهيم لا يقف متحفظاً على علاقة الثورة بالإخوان، وإنما هو حريص فى كل مناسبة على إدانة الطرفين بما يستحقان (فى نظره) وبما لا يستحقان (فى فكره كذلك) كذلك . . وهو يقف مذهولاً (من داع للذهول) أمام تحول بعض رموز اليسار إلى فكر الإسلام السياسى وكأن التحول الفكرى أمر غير وارد على الإطلاق .

### (١٠)

ويحفل كتاب الأستاذ صليب إبراهيم بحديث ممتع عن شخصيات قدر له أن يعرفها وأن يزاومها، ولعل أهم هذه الأحاديث هو تعريفه الجميل والوافى بشخصية صديقه شوقى عبد الحكيم الذى يصفه فى بداية الكتاب بأنه شخصية نادرة مملوءة بالحب

والسياسة والثقافة، وقرب نهاية الكتاب يقدم صورته بقدر كبير من التفصيل، فيقول ضمن ما يقول :

«وكان أول كتاب له (أدب الفلاحين) كتب مقدمته الدكتور مصطفى مشرفة . وكانت من أجمل دراساته في صباه أيضاً، والتي عاصرت كتابتها وهو في مقتبل عمره، عن العوالم وأهل المزاويك والفن الشعبي في محافظة الفيوم . فقد سجل حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم في دراسة واقعية فنية تبين أحوال قطاع من حياة فئة بعض المهتمين في الدنيا» .

«وقد سار على الدرب الفكرى والبحثى، فكتب وبحث ودقق، وكانت حصيلة كتبه أكثر من أربعين كتاباً طبعت بمصر وبيروت، وتحوى موسوعة الفلكلور والأساطير العربية . وكتب أيضاً ١٨ مسرحية مستلهمة من التراث الشعبى، منها : شفيقة ومتولى، المستخبي، حسن ونعيمة، خوفو، الشبابيك، الأعيان، مولد ملك عجوز، أوكازيون، رمسيس، وغيرها . . وصدر له العديد من الروايات، مثل : أحزان نوح، دم بنى يعقوب، الموت والتفاهة، الضحك والدمامة، إستراكون عربية أو هجائيات عربية» .

«ترجم له عملان إلى الإنجليزية هما : الأميرة ذات الهمة وبيروت البكاء ليلاً . أعد أول باليه شعبى من ثلاثة فصول لفرقة رضا للفنون الشعبية، وبدأ شوقى عبدالحكيم العمل عام ١٩٦٢ محرراً أدبياً بجريدة الأهرام ونشر بها بعض النصوص المسرحية التي عثر عليها في محافظة الفيوم من مأسى ومرتجلات، ثم التحق بجريدة الأخبار عام ١٩٦٤» .

«فى عام ١٩٧٨ سافر إلى لبنان ومكث بها خمس سنوات، وشاهد الاجتياح الإسرائيلى لبيروت، وكانت قصته الرائعة «بيروت البكاء ليلاً» .

«انتقل إلى لندن بعد ذلك واستمر هناك حتى عام ١٩٨٩، وعمل أثناءها فى الصحف العربية، وقام بتحقيق دراسة عن كثير من الملاحم والسير الشعبية مثل، الزير السالم، سيرة بنى هلال، وعترة، والأميرة ذات الهمة . واعتمد فى تحقيقه على

مخطوطة بالمتحف البريطاني تقع في ٨ أجزاء، وتصل صفحاتها إلى أكثر من ٢٠ ألف صفحة.

«وفي السنوات الأخيرة بدأ ينشر مقالاته في صحيفة الأهرام كل يوم أحد وتحت عنوان (تراث ومأثورات)، ويخصص كل مقال فيها لجزء من دراسات الأدب والفلكلور، وجزء ثان في نفس المقال عن مشاكل الحياة اليومية ويتابع فيها ما يحدث من تطورات في المجتمع».

«ومن مسرحياته التي عرضت على خشبة المسرح، مسرحية شفيقة ومتولى، من إخراج كمال عيد للموسم المسرحي ١٩٦٤/١٩٦٣ بمسرح الجيب، ومسرحية حسن ونعيمة، من إخراج كرم مطاوع، موسم ١٩٦٦/١٩٦٥ بمسرح الجيب، ومسرحية الملك معروف، إخراج سمير العصفوري، موسم ١٩٧٥/١٩٧٤، ومسرحية أوكازيون، إخراج المخرجة الرائعة الدكتورة ليلي أبوسيف أستاذة المسرح، موسم ١٩٧٧/١٩٧٦ للمسرح الكوميدي، وتمت إعادة مسرحية شفيقة ومتولى، إخراج أشرف زكي، موسم / ١٩٩٧ ١٩٩٨ مسرح الغد . وكانت آخر مسرحياته التي عرضت على مسرح الطليعة عام ٢٠٠٣ مسرحية «بالي أفعل مايدالي».

«تم تكريمه في الدورة الوحيدة التي أقيمت في مصر تحت عنوان «الملتقى العربي» . كما تم تكريمه في الدورة الخامسة لمهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي .

ومن مدوناته عن «الجمال» رمز الصبر والشاق .

«جمال المحامل»:

وكان حاله الأهود وسند	جمال للمحامل يرك
وأنا أكتب لك حجاب وسند	يقوللو يابدر خدني معاك
ملقتش صدر حنين وسند	يقوللو لفيت الكون
يقوللو يلامها بيل تقول وطول	يفوت الأهود على الجمل
جلله الأهود وسند	شى عن سوعبخت الجمل

«خطابى» :

لو كان ليه جمل      فى فن الشيل خطابى  
ما كان غراب اليبين      حارينى وخطابى  
يا فنادى قلبى      أثنين خطابى  
سابق عليك النى يارب      يا خالق اللين فى اليز  
تقوم البكر مثل عادته      بحسنه راحت لىالى الهنا  
وأدى لىالى الغلب      سد خطابى

«ومن المواويل»

أنا دخلت جوة البلد سرراً أريد الناس  
لقيت ابن العلالى وطى والتدل فوق الناس  
أنا عاشرت كل الملل حتى الفجر يا ناس  
إحنا سمعنا مثل من كبار الناس  
الناس بالناس كرهونى ولاد أمى  
يا دنيا الشوم يكفيك هزل بزيادة  
وإن خس مالى حدايا أحباب بزيادة  
نزلت سوق الدلالة بشترى صبر وزيادة  
ورضيت بحكمك على يارب بزيادة

(١١)

وهو يشنى كثيراً على بعض زملائه فى المعتقل وفى مقدمتهم المحامى يوسف حلمى ،  
وهو يذكر له حبه لسيد درويش ، ويشنى كثيراً على الشاعر فؤاد حداد ، ويورد له كثيراً من  
نصوصه ، ويشنى على الدكتور حمزة البسيونى ، الطبيب الإنسان ، وهو فى فقرات  
متباعدة يذكر بالثناء كلا من ألفريد فرج ، وحسن فؤاد ، وعبدالستار الطويلة ، ومحمد  
حمام ، وزهدى ، وصلاح حافظ ، ومهندس الديكور مصطفى كامل .

وهو حريص أيضاً على الإشارة إلى نشاطه الصحفى فى المعتقل من خلال جريدة «عبر إلى الأبد» التى صدر منها عددان، وهى صحيفة حائط، كما أنه حريص على أن يضمن كتابه صوراً للحوارات التى أجراها فى المجلة التى قام بتحريرها للشركة التى قدر له أن يعمل فيها بعد فترة من خروجه من الاعتقال .

وهو فى هذا المجال حريص على أن يشير إلى سبقه الصحفى، حين سجل حادثة انتحار فى السجن لمستول كبير، وأنه بعث بما سجله إلى الكاتب حلمى سلام، فنشر رسالته فى بريد المصور، وأبرزها بما يليق بها . . ومع هذا فإنه يعترف بأنه لا يذكر اسم المتحرر!!

كذلك فإن الحاسة الصحفية الغالبة على صليب إبراهيم، تجعله حريصاً على أن يلتقط الأحداث الدرامية فى فترة الاعتقال، وأن يشير إليها حتى لو كانت إشارات سريعة، ومن هذه الحوادث قصة هروب إبراهيم هرارى من الواحات بطائرة إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا، وهو يرويها على النحو التالى :

« وكان الزميل مندوب توزيع الخبز شخصية متفردة له سحنة أجنبية، لكنه مصرى، وهو الدكتور (إبراهيم أرنست هرارى)، دكتوراه فى القانون الدولى وصاحب مكاتب محاماة عالمية فى مصر وفرنسا، محشوق القوام، متوسط العمر، لا يتحدث كثيراً مع أحد ولا يشارك فى مناقشة ما أو إبداء رأى أو حديث سياسى بوجهة نظر مختلفة» .

«وفجأة اختفى الزميل الدكتور هرارى ومعه صديق له من السجن، واكتشف اختفاؤه بمعرفة الإدارة فى ثالث يوم، وتبين أن سيارة مربية انتظرتة على بعد مسافة طويلة من السجن وأخذته إلى مطار الواحات ليركب طائرة تقله إلى ميناء الإسكندرية ويستقل باخرة إلى فرنسا ومن هناك أعلن وصوله» .

«ورغم مرور أكثر من ربع قرن من الزمان لم يعرف وحتى الآن كيف تم ذلك وبمعرفة من؟ وما هى الخطة المحكمة التى رسمت للتنفيذ؟ . وكتب الكثير من زملاء عشرات الكتب ذاكين هذه الحادثة، ولم يصل منهم أحد إلى رأى أو معلومة تكشف حل هذا اللغز» .

وفى هذا السياق نفسه يروى صليب إبراهيم موقف أحد ضباط السجن المشهورين من رفض القيام بالتوقيع على خروج المعتقلين بعد تجربة سابقة له .

« . . . وأصدر (همت) أوامره بالتحرك فى انتظام كطابور العبيد إلى العمل حفاة . . . عراة . . . منكسى الرءوس . وعند الباب الخارجى لسجن الواحات ، أصدر همت أوامره للمأمور السجن بالتوقيع على خروج المعتقلين من الباب الرئيسى كإجراء روتينى ، وقام المأمور بإصدار الأمر للضابط عبدالعال سلومة بالتوقيع فى دفتر الأحوال . . . وكانت المفاجأة برفض الضابط التوقيع على ذلك . . . وهنا بدأ القلق الفعلى فى عقولنا هل هذا الطريق سيؤدى إلى مجزرة بشرية أخافت الضابط من التوقيع . . . أو ماذا يراد بنا؟! » .

«وسمعنا تمنة الضابط بأنه لن يكرر ما حدث منه سابقاً فى عام ١٩٥٦؟ عندما كان زكريا محبى الدين وزيراً للداخلية ، وأصدر أمراً شفوياً بالاعتداء على أعضاء جماعة الإخوان المسلمين فى أوردى ليमान أبو زعبل ، وفى هذا الاعتداء قتل بعضهم إلى جانب تكسير عظام العديد منهم ، وكان قائد هذه المعركة الضابط عبدالعال سلومة ، وعندما بدأ التحقيق فى هذه المجزرة ، تنصل كل مسئول عنها ، وتم توقيع الجزاء على هذا الضابط ، لأنه لا يحمل أمراً كتابياً بالتنفيذ . . . وتم نقله إلى الصعيد ، وكان درساً له بأن النظام قد يستغنى عن معاونيه بعد أن يمتنهم ، وأنه لن يكرر هذا الخطأ . وطلب همت من المأمور التوقيع بدلاً منه ، ووقع » .

ويروى صليب إبراهيم تجربة أسرته الصغيرة فى محاولة معرفة مصيره ، بعد ما أعلن راديو وارسو وفاته فى المعتقل .

«أذاع راديو وارسو اسمى ضمن الذين قتلوا بالصحراء أثناء العمل ، وأذاع خبر وفاتى خارج السجن ، حتى وصل إلى زوجتى السيدة العظيمة ببلدتنا بمدينة الفيوم . فكتبت شكوى موقعة باسم أكبر أبنائى جهاد خمس سنوات وقتذاك ، رسالة مملوءة بألم الطفل نحو شوقه لرؤية والده » .

«وأرسلت الرسالة شخصياً إلى السيدة حرم رئيس الجمهورية» .

«وبعد فترة (كما علمت بعد خروجي) وصل إلى منزل الأسرة صول من بندر الفيوم لاستدعاء الشكوى، وكانت السخرية بأن صاحب الشكوى طفل صغير . . وصحبته أمه إلى مكتب مأمور البندر ليخطرها بالرد . . وهو . . لم يستدل على عنوان المعتقل المذكور وطلب توقيعها بالعلم !!»

ويستطرد صليب إبراهيم، فيقول :

«ويبدو أن هذا أثار بعض المياه الراكلة بطلب توقيع الكشف الطبي على صحتي . وهل أنا عايش أم لا ؟!»

«واستدعيت للعيادة الرسمية بالسجن لأرى السيد طبيب السجن - وهو لا يختلف كثيراً عن بعض السجناء غلاظ القلب - وطلب وزني الذي وصل إلى ٤٠ كيلو جراماً فقط بالتمام والكمال، وعندما عاد إلى سجل النزلاء لحظة حضوري والذي يثبت فيه وزن كل منا، للمحافظة على صحتنا خوف زيادة أو نقص الوزن، وجد أمام خانة اسمي أن وزني كان ٦٠ كيلو، أي بانخفاض ٢٠ كيلو في فترة محدودة» .

«واحتار النطاسي البارع ماذا يصرف لي من علاج، حيث لا علاج لديه غير الشاش والميكروكروم لزوم الجروح والإصابات، أو بعض أقراص الأسبرين . وتفنتق ذهن الطبيب الرسمي عن روشة عجيبة تصرف من للمخبز وليس من الصيدلية (يصرف للمعتقل رغيف واحد لمدة أسبوع)، وخلال الأسبوع كنا نسعد بهذا الرغيف، فهو ثروة رائعة أشاع البهجة في الغرفة التي نحوي حوالي 15 زميلاً، كنت أوزع لقمة صغيرة وبمقياس محدد للزميل الذي يرغب، وكان من نصيب الزميل الدكتور شكرى هازر، والدكتور محمود القويصني (رحمه الله) نصيب أكبر قليلاً، لأننا نفترش البرش سوياً، ونسامر ليلاً أثناء القلق» .

(١٥)

أما التجارب الإنسانية في هذا الكتاب فثرية بالتعبير الدقيق عن ملامحها حتى إن توارت مع الإحساس بوطأة التعذيب وقسوته، وعلى سبيل المثال نرى المؤلف يعبر عن خوفه من النوم على السرير بعد خروجه من المعتقل :

«وفى الليل وضحت مشكلة طريفة لقد حاولت النوم على سريري للاسترخاء والراحة، ولكنني فوجئت بعدم استطاعتي ذلك، أحسست أثناء غفوتي بالسقوط من السرير للأرض فأصحو مذعوراً، لأنه طيلة السنوات السابقة كنت أنام أرضاً، ويبدو أن الإحساس بالجاذبية الأرضية من الأماكن المرتفعة عن الأرض ولفترة طويلة كان الإحساس بالخوف من السقوط يلزم الإنسان، ورغم التصاقى بالحائط عند النوم ووضع وسائل بجوارى خوفاً من السقوط، لكن كان الجسد قد تعود على النوم أرضاً. ومشكلة طريفة أخرى.. أن طفلي الصغير (ماجد) ثلاث سنوات -والذي ولد بعد اعتقالي بشهور- قد التصق بوالدته فى نومها وقال ببراءة محببة: أنا أنام فى حضن ماما، إنت صغير زى وعاوز ماما، ماما بتاعتى أنا بس ..

أما أطفالى الآخرون (جهاد) ٦ سنوات و(أمل) ٥ سنوات، فقد تقبلانى ببساطة، لأن والدتهم الزوجة العظيمة كانت دائماً تحدثهما عنى، وكانت تريهما ملابسى فى دولابى يتحسسونها ويشمونها ويعبثون بها.. هدموم بابا، وحاجات بابا، ودولاب بابا، وصور بابا، الذى سيعود من سفره قريباً ..».

(١٦)

وهو يثنى الثناء كله على زوجته، وكفاحها، ووطنيتها: «استدعاها لأكثر من مرة الضابط عبد العزيز شاكِر رئيس المباحث العامة بالفيوم وحذرهما، ثم هددها بوقف نشاطها والاتصال بعائلات المعتقلين وفرض رقابة بوليسية على تحركاتها، وحملت بصلاية وشجاعة وشرف ووفاء عبء غياب الزوج وتعرضت لأزمات كثيرة، فكانت فعلاً الزوجة والمرأة الفاضلة وبمحبتها وتدينها العميق».

«قامت بدور كبير ومميز أثناء عدوان ١٩٥٦ على الوطن واشتركت وساهمت بجهد ملحوظ فى التعبئة السياسية والوطنية بمحافظة الفيوم».

«رحلت فجأة من الحياة فى سلام وطمأنينة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٤ تاركة سيرة عطرة، وحقاً السيرة الطيبة أطول من العمر».

كما يحرص صليب إبراهيم على أن يسجل أسماء السيدات السياسيات اللاتي

اعتقلن فى سجن القناطر : «وكان سجن النساء يحوى حوالى ٣٥ سيدة وأنسة من فضليات النساء وزوجات بعض المعتقلين السياسيين . . مدام ثريا زوجة المعتقل فوزى الحبشى ، سعاد الطويل خطيبة الدكتور شكرى عازر ، السيدة أسماء حليم زوجة الزميل أسعد حليم ، والسيدة ثريا أدهم زوجة الزميل حلمى يس ، وسميرة الصاوى زوجة الزميل أحمد طه ، ولىلى شعيب خطيبة الزميل رجاء طنطاوى ، والرسامة إنجي أفلاطون خطيبة الدكتور فوزى منصور ، وأخريات لا تسعفى الذاكرة العجوز بأسمائهن ، وأعتقد أن هذه أول مرة فى تاريخ مصر يتم اعتقال سيدات سياسيات فيها» .

### (١٧)

ونحن نجد صليب إبراهيم حريصاً أشد الحرص على رواية قصة محاكمة مصطفى طيبة ، الذى حكمت عليه الثورة بالسجن ، لمحاولة قلب النظام الملكى !! ، وهو يجعل عنوان الفصل الذى أورد فيه هذه القصة " طرائف أم عجائب أم غرائب " ، وهو يروى القصة بطريقة مؤثرة :

«تم القبض عليه قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأسبوع تقريباً وفى عهد الملك فاروق ، وبتهمة إدارة تنظيم للحزب الشيوعى المصرى والعمل على قلب نظام الحكم بالقوة . . . إلخ ، وكان من المفروض أن الثورة أنهت العهد الملكى بطرد الملك فاروق من مصر ، وبذلك تطفى التهمة محل القضية المذكورة ، لأن رجال الثورة قاموا فعلاً (بمدل) نظام الحكم بدلاً من قلبه ، ولكنه استمر فى سجنه لنظر قضيته وللاستمرار فى سريانها» . .

«وصدر قرار خاص بأن من لم يفرج عنه عليه أن يقدم تظلماً بذلك ، وتشكلت محكمة خاصة ، وبعد عدة جلسات رفضت هذه المحكمة الإفراج عن مصطفى طيبة وزملائه فى القضية ، ووضحت فى حيثيات الحكم الذى صدر منها أن الشيوعيين ليسوا سياسيين وإنما هم اقتصاديون !! وأنهم يصبحون سياسيين فى حالة واحدة» .

«واستمرت المحاكمة مدة شهرين جلسات صباحية ومسائية ، وقبل أن تصل إجراءات المحاكمة إلى نهايتها بأيام ، تم القبض على رئيس المحكمة القائم مقام أحمد شوقى عبدالرحمن ، وتم القبض على محامى المتهم الأستاذ سليمان غنام !!» .

«وأعتقد أنه لاسابقة تاريخية لمثل هذا الحدث، أن يقبض على رئيس المحكمة، والمحامي، والمتهم !! وإلى السجن مصيرهم جميعاً، وتوقفت المحاكمة قليلاً إلى أن يتم تشكيل هيئة محكمة أخرى تنفذ ما يطلب منها، وفي أكتوبر ١٩٥٤ تشكلت هيئة المحكمة برئاسة اللواء الدجوى، وهو - لمن لم تسعفه الذاكرة - كان حاكم غزة أثناء نكسة ١٩٦٧، وقام بتسليم قطاع غزة للإسرائيليين مستسلماً ووقع على الهواء مباشرة مراسم التسليم، فيا حسرتاه».

«وفي شهر يناير ١٩٥٤ أعلنت الأحكام بالسجن على مصطفى طيبة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة قلب نظام الحكم الملكي، وهى التهمة التى قبض عليه من أجلها فى عهد الملك فاروق قبل الثورة».

«وأضى مصطفى طيبة مدة حكمه بالتمام والكمال، وبدلاً من أن يفرج عنه بعد انتهاء فترة العقوبة، انتقل بقوة قرار الاعتقالات التى يصدرها النظام من سجين إلى معتقل - والفرق كبير - صحيح أنه قد استبدل ملابس السجن من اللون الأزرق إلى ملابس المعتقل باللون الأبيض، وخسر كل المكاسب التى كان يتمتع بها السجن، لزيارات، لإخطابات، لاطرود، لاتعامل مع الكاتين إلا فى حدود مبلغ خمسين قرشاً فى الشهر».

(١٨)

وفى المقابل، فإن صليب إبراهيم يحرص على أن يثبت انتقاداته لرموز الطغيان الذى عانى منه، وفى مقدمة هؤلاء، اللواء إسماعيل همت ضابط مصلحة السجنون الشهير، الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد ؛ فإذا بصليب إبراهيم ينفر منه ويحرص على أن يعبر له عن احتقاره !!

.....

ولست أظننى أجد ختاماً لحديثى عن هذه المذكرات بأفضل من هذا السلوك الذى سلكه صليب إبراهيم حين أتاحت له حرته أن يعبر بصدق عن مشاعره الحقيقية تجاه جلاديه.